المرأة الوطن في (رسالة من قابيل) لوليد الصرَّاف

م.د. إبراهيم خليل / مديرية تربية القادسية

IbrahimKhaleel1977@gmail.com

تاريخ الطلب: ٢٠٢٢/١٢/٢٠

تاريخ القبول: ٢٠٢٣/١/٢٣

الملخص:

تعد المرأة وتوظيفها ظاهرة واضحة في الشعر العربي بعصوره الأدبية المختلفة القديمة والحديثة والمعاصرة ، وقفوا عندها واصفين ومتغزلين على مستوى الصفات والجسد ، فكانت ماثلة في أشعارهم وحاضرة بصورها المختلفة ، أم ، زوجة ، أخت ، حبيبة ....الخ ، فجاء التوظيف متساوقاً ومكانتها في المجتمع أولا وعند الرجل ثانيا ، فالرجل أدرك أنها سر الحياة وسبب ديمومتها ، والبحث هنا يدرس صورة المرأة في شعر (وليد الصراف) الذي يعد من أعمدة الشعر العراقي المعاصر في ديوانه (رسالة من قابيل) ، الذي شكل وصف المرأة وتوظيفها ظاهرة واضحة ولكن بوصفها وطنا للشاعر ، أي أن الشاعر نظر إليه نظرة الوطن ، وأحبها محبته للوطن رأينا أن نقف عندها محللين كاشفين بالرجوع إلى هذه المجموعة الشعرية ، على وفق منهج يبدأ من النص ويعود إليه ، رابطين السبب بالنتيجة والمقدمة بالخاتمة ، والمحسوس بالمجرد والمجرد بالمحسوس ، والغاية من هذا وذاك هو بيان صورة المرأة في شعره ، وبيان خصائص ذلك الوصف على المستوى الأسلوبي .

أولا : صورة المرأة الوطن في الشعر العربي الحديث والمعاصر :

تعد المرأة عنصراً بارزاً من عناصر الخطاب الشعري ، ولشخصية المرأة حضور مميز في المنجز الشعري ، فالقصيدة بعامةٍ رجل وامرأة ، والقصيدة هي فن الحوار بين الطبيعة والأشياء بوساطة الخيال الذي يستمد مقوماته من تجارب الحياة ، وفي القصيدة العربية هناك صورة المرأة المنتاقضة مع واقعها ، وهناك صورة المرأة المستقيمة ، صور الخصائص الجوهرية التي تحمل معاني حضور المرأة الإنساني وتفردها الأنثوي ، وبنية الشعر تقوم على هذا الحضور ، فالمرأة ذات معطيات جمالية

واجتماعية ، فهي تمد الأديب بمادة غزيرة [١] ومن هنا يمكن القول أن((المرأة هي مصدر التعبير الجمالي عند الشعراء ، للعلاقة الروحية التي ربطت وتربط بينهما ، وقد أدرك الشعراء أن المرأة قد حملت بين جنبيها كل الجدليات المحتملة وغير المحتملة، فهي التركيب البايلوجي الظاهر، والأثر التكويني الساحر، ولإبهارها الجمالي جانبان عند الشعراء: جانب مادي حيوي مقترن بالطبيعة الساكنة أو المتحركة لوصف المفاتن الجسدية، وجانب معنوي بقي صدىً يحمل وجدان الشعراء، ومصدراً متحركاً كحركة الظل فتبعث التغيرات الروحية والانفعالات النفسية)) [٢]

لم يختلف دارس على مكانة المرأة في الشعر العربي قديما وحديثا فحضورها لم لك يكن حضوراً فنياً فقط، بل كانت زاحمت أفكار الشاعر وتمثلت في فضاءه الشعري صوراً مختلفة، وتغيرت النظرة إليها على وفق المجتمع الذي يعيش فيه الشاعر وقرينته ((فإذا أخذنا محتويات الشعر الجاهلي من غزل، وحاولنا مقارنتها بمحتوى الشعر العربي المعاصر من غزل، وحاولنا مقارنتها بمحتوى الشعر العربي المعاصر من غزل أيضا لوجدنا تبدلا في الكيف. فالحاج[٣]ات الشاعر في العذرية والوفاء ونوع المادة الخاضعة للتغزل بأنحاء الجسد واثاراته هي المفترض الكيفي للتبدل طبقا لتغاير المجتمعين)) [٤]

لقد وظف الشاعر العربي الحديث المرأة العربية في التعبير عن كل أفراحه و أتراحه، بكى لفراقها و معاناتها، و استشرف النصر و تغنى بالحرية و تمرد على القهر مما أثرى قصائدهم بدلالات كان لها وقعها المؤثر في أسماع القارئين و أعطى لكثير من قصائدهم أهميتها و قيمتها في الشعر الحديث، و استلهامها لا يأتي إلا تجسيدا لقيم الخير و الحرية و الثورة، و أضفى عليها رؤية معاصرة في التوظيف [٥]

اختلفت صورة المرأة في الشعر العربي الحديث عن صورة المرأة في الشعر القديم، حيث بدأت المرأة في هذه المرحلة الشعرية تدخل بحلة جديدة مختلفة عن الصورة التقليدية التي أخذتها في الشعر العربي واشتد هاجس الرفض عند احتكاك المرأة أو المجتمع العربي بقيم المجتمع الغربي تولد عندها الرغبة في الشعور بالحرية ورفض كل القيود التي كان المجتمع العربي القديم يربطها بها وبالتالي دعت إلى حرية مثل حرية المرأة الغربية، نتج عنه انحلال خلقي للمرأة ومجاراتها لقيم المرأة الغربية. ولقد عبرت الأشعار العربية عن التحولات الحاصلة في الساحة الاجتماعية العربية وانعكاساتها على الوعي حيث، جاءت صورة المرأة فيها لتفصح عن توقها إلى الحرية والتحرر وفق الأنموذج الغربي[٦] .

مع بداية الخمسينات من القرن الماضي بدأتْ حركة التحرر العربية تشق طريقها بخطواتٍ متسارعة محققةً الانتصار تلوى الآخر، ترافق ذلك مع تغيرات كبيرة في مجمل الوعي العام العربي و

الإيديولوجيات السائدة تمثلتْ في الدرجة الأولى بوعي ضرورة التغيير ، ... و هنا برزتْ عدة إشكاليات على الساحة السياسية العربية تمحورتْ حولها مشاريع التغيير الاجتماعي كإشكالية فك الارتباط من التبعية الاستعمارية [٧]

لعلّ الشاعر نزار قباني يمثِّل أول من كسر الطوق المفروض على المرأة و حالة الحصار المجتمعي على رغبات الإنسان العربي و مشاعره من خلال ديوانه قالت لي السمراء ، هذا الديوان كان الخطوة الأولى في مشوار قباني الطويل في دروب المرأة ، قدّم الشاعر في قصائده إدانة لذكورية المجتمع العربي و دفاعاً عن حق المرأة في التعبير عن مشاعرها و حاجاتها ، لكنّ الإشكالية تكمن في أن نزاراً كان يدعو لهدم الحواجز بين المرأة و الرجل من الناحية الجنسية بالدرجة الأولى ، أما التأسيس لعلاقة متكافئة بين الرجل و المرأة فقد كان غائباً عن شعره ، فمعظم صوره التي قدمها عن المرأة كانتْ مقتصرة على المرأة اللعوب [٨]

المرأة قبلة الشاعر التي تهوى إيها نفسه وتجوب حولها روحه، فالجواهري في نصه هذه الذي يخاطب فيها زوجته يحمل من الوجع والهم ما أثقل الشاعر، فأخرجه صوت هادر من خلال هذه الابيات نحو (قبلته/ المرأة) التي يحج إليها، فتضطرب فيها الأفكار، ويتمازج بها الزمن فتكون هذه المرأة بوابة لذاكرة الطفولة وأنس عيشها، وبوابة للبرء من السقم، فنلحظ في هذا النص نظرة للمرأة تسموا بها وترتقي بها. نرى أن المرأة في شعر درويش تتخذ فضاءً عاما يرتبط بالأرض التي ولد عليها أو هاجر إليها فالوطن عنده ((ليس جغرافيا فحسب بل حالة ذهنية، فكرة يتوسل الشاعر لإحيائها وبث الحياة فيها بكل ما يمكن أن يعينه على إعادة بناءها وتبيتها في ذاكرته)) [٩] ، فالمرأة أرض الوطن وتاريخه السابق والحاضر، وحتى المستقبل.

المرأة عند محمود درويش هي المكان الذي يحقق له وجوده وينتمي إليه

أنتِ التي لا أحبكِ حين أحبُكِ . أسوارُ بابلَ

ضيَّقَةٌ في النهارِ ، وعيناكِ واسعتان ، ووجهكِ

منتشرٌ في الشُعاعِ ..

يا امرأة وضعت ساحل البحر الأبيض المتوسط في

حضنها .. وبساتين آسيا على كتفها .. وكل

السلاسل في قلبها[١٠]

فالمرأة في شعر درويش تمثل الوطن الذي يأوي إليه ، فهي ملاذه وقبلته وسر وجوده ، فلم يعد الشاعر العربي ينظر إليها نظرة الشاعر القديم ، تلك النظرة القائمة على جوانب محددة تلائم الحياة العربية في تلك الحقب ، واكتفينا بدرويش كون الموضوع واسع ويحتاج إلى إطالة ، فشعر درويش يستطيع القارئ التعرف على موقف الشعراء في العصر الحديث من المرأة على وفق تحولات المجتمع العربي ودخوله عالم الحداثة والعولمة التي ألقت بظلالها على المنجز الشعري الحديث .

ثانيا : صورة المرأة الوطن في شعر وليد الصراف :

من ضروريات الدراسة الفنية لأي نص أدبي لابد أن تقوم على دراسة الصورة الشعرية بوصفها الجزء الأهم تعد الصورة الفنية أساس الخلق الشعري، فهي تشكيل جمالي ونفسي يتكون مما التقطته حواس الشاعر المبدع من مدركات حسية أو معنوية، بحسب طبيعة تأثره بها، حتى يمكن أن نطلّ منها على الباعث النفسي المتواري خلف ألفاظ القصيدة ومكوناتها الفنية وأسسها البنائية ومهيمناتها الأسلوبية ، وما تركته التجارب والمشاهد التي رافقت حياة الشاعر من آثار عميقة الغور في وجدانه، فتتدفق احساساته بصياغات جمالية محسوسة ومشحونة بعاطفة تستجيب لها نفس المتلقي على نحو تلقائي لتلمس انفعالات الشاعر وخلجات نفسه المعبرة عن نبوغه الفني وعبقريته الشعرية الفذّة عن طريق ربط الخيال بالصورة[١١]

فهي ((بنية لغوية ذات غايات جمالية وهذه الغايات تربط بينها وبين الفنون الأخرى ، وهو ربط لا يغفل الأصل اللغوي للشعر عامة وللصورة خاصة باعتبارها جزءًا من هذا الشعر ؛ولذا فإنه يُنظَر إليها بوصفها رسماً قوامه الكلمات ،إن الوصف والمجاز والتشبيه يمكن أن تخلق صورة ، أو أن الصورة يمكن أن تقدم إلينا في عبارة أو جملة يغلب عليها الوصف المحض ،ولكنها توصل إلى خيالنا شيئًا أكثر من انعكاسٍ متقنٍ للحقيقة الخارجية ،إن كل صورة شعرية لذلك هي إلى حدٍّ ما مجازية))[١٢]

فالصورة الشعرية– كما نعتت – لبّ العمل الشعري الذي يتميّز به، وجوهره الدائم والثابت، بل إنّ ذات الشاعر من خلالها يمكن أن تتحقّق موضوعيا في الصورة أكثر ممّا تتحقق في أيّ عنصر آخر من عناصر البناء الشعري إلا أن هذا، لا يعني أنّها نالت نصيبها من الدراسة واستوفت حقها من التحليل، بل إنّ المصطلح لا يزال غائما عند الكثير من النقاد والدارسين، ومردّ هذا – في نظرنا – إلى طبيعة المصطلح نفسه، وارتباطاته، بل وتداخله مع مصطلحات أخرى، مثل (الصورة الأدبية)، و (الصورة الفنية)، و (الصورة البلاغية)، و(الصورة البيانية)، و (الصورة المجازية)...

ناهيك عن تشعب مفاهيمه، وتعدّد مقاصده المنبثقة عن المذاهب الأدبية، والمناهج النقدية المتعددة، وتطوّر الحقول المعرفية التي يتكئ عليها النقد الحديث في تقييمها.[١٣]

وموضوع بحثنا هو دراسة صورة المرأة في شعر وليد الصراف بوصفها وطننا ، المرأة التي عدها الشعراء مصدر العطاء والنماء ومصدر الجمال والعاطفة ، أحس ذلك الشعراء قبل غيرهم ، فمنحوها عناية واهتماماً على مستوى التصوير والوصف والتشكيل ، فكانت عنوان قصائدهم أما عند الشاعر **(وليد الصراف)** فقد شكلت المرأة مساحة واسعة من شعر الشاعر ، لذلك جاءت المرأة على وفق نسيج شعري خاص ، تمثل المرأة تمثيلاً حسياً مفعم بالعاطفة يربط الصورة بالجسد تارة والجسد بالصور تارة أخرى ، لذلك جاءت الصورة والتمثلات كاشفة عن العلاقة الرابطة بين الشاعر والمرأة لذلك كانت المرأة شغلهُ الشاعر ، أخذ يصفها ويصورها ويمثلها بإبداعية كاشفة ولغة شعرية واصفة ، فالشاعر بين الكشف والوصف أستطاع أن يعطي المتلقي بعداً جمالياً حسياً للمرأة وبعد قراءتي لمجموعته الشعرية

ولم يعد وليد الصراف ينظر إلى المرأة على أنها ذات الكيان الأنثوي ، بل أخذ ينظر إليها على أنه تمثل الوطن ، أو تختزل الوطن ، فجاء وصفها مقرونا بالوطن على أنها هي الوطن ، بصورة شعرية خيالية مدركا أن تعد الصورة الفنية أساس الخلق الشعري، و تشكيل جمالي ونفسي يتكون مما التقطته حواس الشاعر المبدع من مدركات حسية أو معنوية، بحسب طبيعة تأثره بها، حتى يمكن أن نطلّ منها على الباعث النفسي المتواري خلف ألفاظ القصيدة ومكوناتها الفنية وأسسها البنائية ومهيمناتها الأسلوبية ، وما تركته التجارب والمشاهد التي رافقت حياة الشاعر من آثار عميقة الغور في وجدانه، فتتدفق احساساته بصياغات جمالية محسوسة ومشحونة بعاطفة تستجيب لها نفس المتلقي على نحو تلقائي لتلمس انفعالات الشاعر وخلجات نفسه المعبرة عن نبوغه الفني وعبقريته الشعرية الفذّة عن طريق ربط الخيال بالصورة [١٤]

وفي ذلك يقول :

لانت مـــن الماء لاح لظام على الموت أشرف أحلى مذاق (المتقارب)

شفاهكِ نبــعي الوحـيد وأني ظمـــيّ يكان يموت اشتياقي

دعيني ونبعك عــشرين عاما عــساني أنسى ولست العراقا

حنانا ضممتُ لصدرك صدري كأنّي أضـــــمُّ إليّ العراقا

أضمّ فراتيه طفلين نـــحوي مـــن الشّوقِ يزاحمان استباقا [١٥]

لقد امتزجت المرأة وانصهرت بالوطن بوصفه موجودا حيا نابضا بالحياة ، فأخذ الصرّاف هنا يعبر عنها تعبيراً شعريا خاصاً ، فقد قرن وصفها بالبيت الأول بالماء والماء سر الوجود وأساس الحياة ، ثم ربط بين ذلك الماء حيث الحياة والموت بصورة قائمة على المفارقة **(على الموت أشرف أحلى مذاق)** ، ثم أخذ يصف تلك المرأة الوطن ، **(شفاهكِ نبـــعي الوحـيد)** ، نبع لذلك الماء الذي يروي منه عطشه ، ثم أخذ يبدأ برسم صورة شعرية معبرة عن ذلك الوطن الذي اختزله بالمرأة ،فعبر الشاعر عن ذلك الحب من خلال اقتراها بالوطن ، فقوله : **((دعيني ونبعك عـشرين عاما + عـساني أنسى ولست العراقا))** ، فهي النبع الذي يطفئ شدة ظمأه ، في كالعراق في نظر الشاعر ، ثم اردف الصورة هذه بصورة أخرى مجازية **((كأنّي أضـــــمُّ إليّ العراقا))** ، فالشاعر جعل من تلك المرأة عراقاً يضمه لصدره ، فهي معادل موضوعي للعراق (الوطن) ، ثم ربط المرأة الوطن بنهري العراق الذي شببهما بالطفلين .

ومن الأمثلة الأخرى في توظيف المرأة الوطن ، قوله :

أرى إليها ودمعـــي غائمٌ فأرى في الصحوّ ما لا يرى الوسنتان في الوسنِ (الكامل)

كيف اختصرتِ وأنت البيدُ واسعةٌ والرّافدان بهذا الوجـــــه يا وطني

أفديكَ يا وطني لان الحديدُ لمـــن جرّوا الحـــــديدَ إليهِ وهو لم يحنِ

يغارُ لو برقـــتْ في الأفق بارقةٌ مـــــــن وابل الدم فيه وابل المُزُنِ

أفديكَ تندسُّ من عينينِ خـــــبأتا دهـــراً من الحزنِ والأحقاد والمحنِ [١٦]

بهذه الذاتية الواضحة يفصح **(الصرّاف)** عما يجول بخاطره إزاء أشياء بدت في خلده مصدر الحزن تارة والفرح والسرور تارة أخرى ، كشف عنها بوساطة نسيج شعري خاص ، يلتقي معه الأنا بالآخر **(الوطن) / (المرأة)** ، فربط بينهما ربطاً قائما على الترابط والانسجام الروحي ، فهذه المقطوعة كشف فيها عن ترابطه الروحي والعاطفي والوطن ، فدمعه غائم في دلالة على الحزن المنحبس في ذاته ، فالغيم الممطر هنا هو الحزن الدائم ، ثم اردف هذه الصورة الشعرية بصورة شعرية أخرى ، فقد جعل للوطن وجها والرافدين يجريان به ، وهذا التوصيف إنما يدل على عمق العلاقة وصلابتها ، بينه والوطن ، ثم استكمل تلك الصورة بربط الوطن بالمرأة التي أحبها ، فهي في وجدانه كالعراق ، إذ يقول:

سوادُ عينيكِ أم ثوبَ الحــدادِ أرى　　على الدماءِ التي سالتْ بلا ثمنِ　　(البسيط)

على الربيعِ الذي قد حان مــوعده　　مرَّ الخــريفُ بنا ألفاً ولم يحن

وفتنةٌ بدماءِ أخْمِدَتْ فَصَـــحَتْ　　مـــن الرماد براكينا من الفتن

أرى واســمع ما لو قلت قد كذبت　　عــينيَّ تكذبني من أجلها أذني

يا قدها يا عراقا حــل فــي امرأة　　وحل تاريخه في وجهها للحسن [١٧]

تتمثل صورة المرأة عند **(الصرّاف)** في هذه الأبيات وطنا بكل تفاصيله فهي أرضه وماءه برقه ومطره، فهي تخزن في عينها ذاكرة الوطن الجمعية التي تخزل الدهر بكل ما فيه من محن، فهي عنده ذات تجسد فيها الألم، فزاحم سواد ثوب الحداد جمال سواد عينيها، وغلبه حتى أصبح السواد جزءا من هويتها، ويطرح الصراف تعليلاً هذه النظرة السوداوية التي تلبست بها المرأة، فيسألها أعلى الدماء التي سالت بلا ثم نتيجة الحروب والصراعات الدائمة الدائرة على أرض الرافدين، أم على الأمل المفقود الذي ضاع في غياهب الخريف، فالمرأة عنده الرمز الاثير الذي تمر عليه الفتن فينهض منها ويعيد تشكيل نفسه فالمرأة هنا كالأرض، إنها القوة السحرية التي تعطي وتحمل وهي الخصب بالحصاد والحسناء النائمة على حجر الوطن .

المرأة عند الشاعر الراوي البيت المأهول الذي شعره بالأمن والاستقرار، وهي ركن العالم الخاص الذي يركن إليه، وتعود به وتنقله "الى أرض الطفولة غير المتحركة، غير المتحركة كالذكريات البالغة القدم. نحن نعيش تثبيتات السعادة، اننا نريح أنفسنا من خلال أن نعايش مرة أخرى ذكريات الحماية [١٨] فعيني المرأة تبني له وطن الطفولة التي شعر به بالأمن والاستقرار ووفر له الحماية، فأثارت هذه الذكريات القلب الذي رف كالحجل في أقدام الفتيات طرباً، فأعادته بدون أجنحة نحو ألفة أيامه الأولى. ونراه مرة أخرى يجل من المرأة مثيراً يستفز الذاكرة فيتناص مع عنترة ويضمن مفتتح معلقته لينطلق منها نحو دار المحبوبة التي جعل منه وطننا يأوي إليه فيقول:

هل غادر الشعراء من متردم　　أم هل عرفت الديار بعد توهم　　(الكامل)

دارا أراقت قبل عشر أدمعي　　حـــــسناؤها حارساها دمي

ما مت بعد وما دفنت وها أنا　　تــستاقني الذكرى لنار جهنم

فلئن هدى شيطان شعر شاعراً　　فأنا هــداني شعر ذاك المبسم

والله لا أحتاج غير شفاهها لأعلّـــم الشيطان ما لم يعلم [١٩]

إن تضمين مطلع معلقة عنتر يحمل بعدا دلاليا استثمره الصراف لصياغة صوره الشعرية الجديدة، فإذا كان عنترة يرى أن الشعراء قد أعفت المعاني ولم تترك صورة إلا واوردتها، فإنه ينطلق كما انطلق عنترة من بيت عبلة لبناء معلقته، فيتخذ من دار المحبوبة التي اشتركت مع حارسها في إراقة دمعه ودمه، ملهما لبناء صوره الشعرية فلا تزال ذكريات ذلك المكان تجيش في الحشى، فتلهمه الشعر كما تلهم شياطين الشعر قدامى الشعراء [٢٠]

فالشاعر بهذه المقدمة الطللية التي استقاها من معلقة عنترة بن شداد إنما أراد الإشارة إلى القيمة الروحية للمكان والارتباط العاطفي والأزلي به ، رابطا ذلك الارتباط بالمرأة الحسناء التي أرّقته وكانت فراقها المتربط بفقد المكان سببا في حزته العميق الذي أنزل الدموع بسببها ، فأشار إلى تلك العلاقة ، علاقة المرأة بالوطن بقوله : ((**والله لا أحتاج غير شفاهها**)) ، فالشاعر يحتاج إلى شفاه تلك المرأة احتياجه للوطن ، فالمرأة هي الوطن أو في قبالة الوطن ، وهنا تمثلت المرأة بهذا التوصيف تمثلا قائما على ربطها بالوطن ((**هل غادر الشعراء من متردم**)) ، ثم ربط الصرّاف ذلك الوطن بالمشاعر والأحاسيس ، فعبر عنه بقوله : ((**دارا أراقت قبل عشر أدمعي**)) ، ثم أخذ يضفي على المرأة الوطن صفات الحسن والجمال : ((**حسناؤها حارساها دمي**)) ، ثم ختم القصيدة بقوله : ((**والله لا أحتاج غير شفاهها**)) ، تعبيراً عن تلك العلاقة الروحية التي جمعته بتلك المرأة الحسناء (الموصل) .

ومن الأمثلة على تشكيل صورة المرأة في شعر (**وليد الصرّاف**) ، قوله :

عش الطفولة في عينيك أومأ لي فرف في الصدر قلبي رفة الحجل

يدي وثغري جناحاه بدونـــهما مـــــا طار مني الى أيامه الأول [٢١]

فقوله : ((**عشت**)) دلالة على المكان ، فالعيش إنما يكون في المكان ، والشاعر عاش في (عينين) الحبيبة ، فعيونها مكان عيشه وملاذه الوحيد ، فالشاعر تقمص دور الطفل هنا ، المحتاج دوماً إلى حنان صدر أمه ، فوجد ذلك الحنان في (عيني) الحبيبة ، فصارت أمه عين الحبيب وصارت (عين) الحبيب هي الوطن ، وبهذه التقنية التي قامت على المقابلة بين (العين) و (الوطن) و(الأم) عادّا المرأة وطناً له ، [٢٢] وهنا تكتسب اللغة الشعرية عند الصراف نمطا خاصاً مكسواً بثوب المعنى المتوّج بالمضمون، لتأخذ على عاتقها ثنائية اللفظ والمعنى، إذ تتلاحم فيها نظرية الجرجاني مع أسلوبية

سوسير في الدوال الشكل والمدلولات المضمون، لتكوّن فكرة التكامل النصي في اختراق أعقاب ذهن المتلقي [٢٣]

ومن نماذج المرأة الوطن في شعر **(وليد الصرّاف)** قوله :

مكحولةٌ والـــبدرُ من خطّابها ألقى بفضّته على أعتابها (الكامل)

والفجرُ طــوّق جيدها بنُضاره وأراقــه في مائها وترابها

وفدَ الربيعُ فأدخـــلته وأطلقت أنســامَهُ وحمامَهُ برحابها

سمحت له بزيارتين وبعدهـــا تركتــه منظراً على أبوابها

أحلى النساء خرير دجلة همسها وشذا وورد رُباه من أطيافها

ما زال ينسج وردها وغصونها متخفّيا ويحوكُ خصر ثيابها [٢٤]

لقد انصهر الشاعر هنا بالمرأة انصهار المحب العاشق ، فالمرأة تمثل سر الوجود وعماد الحياة ، تمثل تلك العلاقة تمثلاً حسياً مفعما بالعاطفة والخيال الجامح ، والمرأة هنا مدينة (الموصل) ، موطن الشاعر ، كشف بوساطته عن رهافة حسّه وجمالية تصويره ، محاولاً – بوساطة نسيجه الشعري – أن يعطي المتلقي صوراً شعرية كسر فيها أفق التوقع ، فأعطى صوره الشعرية بعداً جمالياً كاشفاً ، لتكون صورة المرأة الحبيبة ظاهرة في شعره ، فبدأ بتوصيف تلك المعشوقة ، فقد وصفها بالمرأة المكحولة في تدليل على جمال عينيها وكان البدر الدال على الجمال الوضّاء – لجمالها – أول من تقدم لخطبتها طلباً للزواج ، ثم رسم صورة شعرية أخرى ، فقد صورها بصورة الواهب المعطاء المقبل على الحياة ، فقد أدخلت الربيع فيها وتقمصت دوره الجمالي في الطبيعة ، حيث النماء والمنظر الجميل ، فأطلقت أنسامه وجمامه برحباها هي ، فتحولت من مرأة جميلة إلى مكان جميل ، فتملّكت معالم الجمال الكامن في (الربيع) ، فأضفت على المكان روعة وجمالاً ، ثم ربط الشاعر بين تلك المرأة بينها والوطن ، **(أحلى النساء خرير دجلة همسها)** ومن هنا كان الشاعر ((قادراً على التسلسل والتتابع، وهذا التتابع الشكلي يعين في إثارة التوقع لدى السامع))[٢٥]

ومنه قوله :

ليستْ دياراً وإن كانـــت لأدخلها ولا طلولا وإن بانـــت لأسألها

وليست امرأة لا بل هـــــي امرأة الورد عـــطّرها والليل كحّلها

وقبّتا في صدرها فـــي الليل أذّنتا ليهرع القلب من أقصى الجليد لها

لي موصلي موئلا في الأرض يكنفني إذا أضـــاعت صغار الطير موئلها

لها عليّ وقـــــد حلّ الخريفُ كما قـــــــد دللّتني طفلا أن أدلّلها

بل جنة الخلد للعيـــــنين أشرعها دون ثـــــغري والكفين أقفلها [٢٦]

فقد تمثّل (**الصرّاف**) صورة المرأة / الأم تمثيلاً حسياً ، مقابلاً في ذلك التمثيل بين الصورة الذهنية الراسخة للأم بما حفل الموروث الشعري من توصيف والحالة الشعورية التي عاشها الشاعر ،على وفق نسيج شعري خاص ومن هنا جاءت صورة الأم صورة مفعمة بالعاطفة والمشاعر ، فكانت المرأة في شعر الصرّاف ((جسراً عضوياً يجمع بين المكونات النصية في نسيج فني متماسك البناء))[٢٧]

فالمرأة في هذه المقطوعة الشعرية تمثل الوطن تمثلا حسياً ، فجعل منها وطنا يلوذ به ، فدخل فيها دخولا أزليا فاعلا ، فقال : (**ليستْ دياراً وإن كانت لأدخلها**) ، ثم عمد الشاعر إلى نفي صفة الأنوثة عنها وعاد ليثبتها لها ، فالنفي جاء ليدلل على أنها وطن ، والإثبات ليدلل على حسنها وجمالها ، والمرأة بين النفي والإثبات إنما هي علاقة تداخل وتمازج روحي ، فهي وطن جميل جمال المرأة الحسناء ، (**وليست امرأة لا بل هي امرأة**) ، ثم أخذ يضفي عليها صفات الورد ، في دلالة على جمال تلك المرأة الوطن ، فقال : (**الورد عـطّرها والليل كحّلها**) ، وقال : (**وقبّتا في صدرها فـي الليل أذّنتا**) ، ثم ربط تلك المقدمة الصورية بموطنه الأزلي الذي عبر عن انتمائه له تعبيراً خاصاً ، مرتنبط(**لي موصلي موئلا في الأرض يكنفني**) ، (**بل جنة الخلد للعيـنين أشرعها**) ،

الخاتمة :

إن الشعر العربي اتخذ من المرأة ملهمة لصوره ومعانيه، فلا نكاد نرى شاعراً من شعراء العرب إلا وللمرأة دوراً فعالاً في شعره، إلا أن هذا الدور اختلف على وفق نفسية الشاعر واحساسه اتجاه المرأة لحظة الخلق الشاعري، فوجدنا في الشعر المرأة بصورتها الإيجابية كما نجد صوراً سلبية وسمت بها المرأة، فهي وإن كانت الحبيبة فقد تكون الجافية، أو المعرضة وقد تكون الخائنة، إلا أننا وجدنا أن للمرأة في شعر وليد الصراف ورسالة من قابيل حاصة صورة إيجابية فقط، في كانت الأم المقدمة أبناءها فداء، أو الحبيبة الصابرة، الملهمة، فهي في كل حالاتها في هذه المجموعة ترتبط بالماضي

الاثير، والفطرة الإنسانية النقية، لذا جعل منها الوطن الذي يأوي إليه، فيأمن به ويسعد فيه ، والشاعر **(وليد الصرّاف)** ، من الشعراء الذين صوّروا المرأة تصويراً خاصاً ، وهذه الخصوصية جاءت مرتبطة بالمكان فكان عنوان البحث **(المرأة الوطن في رسالة من قابيل)** لوليد الصرّاف ، ودرسنا البحث على وفق المنهج الوصفي التحليلي ، فالشاعر يتوسل بالمرأة ، ليكشف عن أبعاده النفسية والشعورية ،ليصل إلى رؤيته وقدرته التأثيرية من خلال تنظيمه الدلالي، التى تنزع إلى حرمانه الذاتي وشعوره بالحاجة إلى كل المعطيات المفقودة والتي يريد استعادتها وإيقاظها بداخله .

الهوامش :

[١] تجليات صورة المرأة والنسق الثقافي في الشعر العراقي (١٨٧٥. ١٩٤٥) ، جاسم حميد جودة الطائي ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة بابل ، وينظر : المرأة في شعر يحيى وفيق ، علي بن أحمد الزهراني ، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة مؤتة

[٢] ينظر: صورة المرأة في شعر أبي فراس الحمداني – دراسة موضوعية فنية، عبلة بو غاغة، (رسالة ماجستير)، جامعة الحاج لخصر، الجزائر، ٢٠١٢م : ٨ .

[٣] نقد الشعر في المنظور النفسي : ٢٣٧-٢٣٨

[٤] مكانة المرأة و فعاليتها في الشعر العربي الحديث ، فضل ناصر مكوع ، مركز جامعة عدن للبحوث والتدريب ، العدد : ٦ ، ٢٠١٣: ٢٣٤

[٥] ينظر : عبده بدوي، دراسات في النص الشعري: العصر الحديث : ١٤٤

٦- صورة المرأة في الشعر العربي الحديث ، آمنة عمايرة : ٢٢

٧- الادب العربي الحديث ، سالم المعوش : ٣٢

[٨] ينظر : المصدر نفسه : ٣٣

[٩] نحو قراءة نقدية لأرض محمود درويش: ١٩٦

١٠- قصيدة الأرض في شعر محمود درويش: ٨٤،

[١١] ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب , د. جابر: ١٤ .

١٢- الأسس الجمالية للصورة الشعرية ، أحمد ناصر المعابد : ١٢٣

[١٣]ينظر : المصدر نفسه : ١٠٨

[١٤] ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب , د. جابر عصفور: ١٤

[١٥] رسالة من قابيل : ٢٢

[١٦] المصدر نفسه : ١٦

[١٧] المصدر نفسه : ١٧

[١٨] جمالية المكان : ١٩

[١٩] رسالة من قابيل :

[٢٠] المرشد إلى فهم أشعار العرب : ٨٣/٣

٢١- رسالة من قابيل : ٤٣

[٢٢] بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن :٣٣ .

[٢٣] ينظر: الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية ، فتح الله احمد سلمان ، تقديم د. طه وادي : ٣٥.

[٢٤]رسالة من قابيل : ٤٤

[٢٥] قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي، د٠ موسى ربابعة ، ص٣٧- ٣٨ .

[26] – رسالة من قابيل : ٤٨

[٢٧] بنية التكرار في شعر أدونيس ، د مصطفى محمد كلاب ، ص٧٢ .

المصادر :

، دراسات في النص الشعري ، العصر الحديث عبده بدوي ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع،

الأسس الجمالية للصورة الشعرية ، أحمد ناصر المعابد ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥

الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية ، فتح الله احمد سلمان ، تقديم د. طه وادي ، مكتبة الآدب ، مصر ، ١٩٩٩

بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ، دار النشر : دار توبقال ; سنة النشر : ١٩٨٦ .

تجليات صورة المرأة والنسق الثقافي في الشعر العراقي (١٨٧٥. ١٩٤٥) ، جاسم حميد جودة الطائي ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة بابل ، وينظر : المرأة في شعر يحيى وفيق ، علي بن أحمد الزهراني ، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة مؤتة.

جمالية المكان ، غاستون باشلار ، ترجمة : غالب هلسا ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، بيروت .

رسالة من قابيل ، وليد الصراف ، دار ماشكي ، العراق الموصل ، الطبعة الأولى .

الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب , د. جابر عصفور , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط٣ , ١٩٩٢

صورة المرأة في شعر أبي فراس الحمداني – دراسة موضوعية فنية، عبلة بو غاغة، (رسالة ماجستير)، جامعة الحاج لخصر، الجزائر، ٢٠١٢م .

قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي، د٠ موسى ربابعة

مكانة المرأة و فعاليتها في الشعر العربي الحديث ، فضل ناصر مكوع ، مركز جامعة عدن للبحوث والتدريب ، العدد : ٦ ، ٢٠١٣

نحو قراءة نقدية لأرض محمود درويش ، اعتدال عثمان ، مجلة فصول ، العدد الأول ، ١٩٨٤

نقد الشعر في المنظور النفسي ، ريكان إبراهيم ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ، ١٩٨٩ .

Summary :

Women and their employment is a clear phenomenon in Arabic poetry in its different literary eras, ancient, modern and contemporary. They stood there describing and flirting at the level of qualities and the body. Society first and the man second, for the man realized that it is the secret of life and the reason for its perpetuation, and the research here studies the image of women in the poetry of (Walid Al-Sarraf), which is considered one of the pillars of contemporary Iraqi poetry in his collection (Letter from Cain), which formed the description of women and their employment as a clear phenomenon, but as a homeland For the poet, that is, the poet looked at him with the look of the homeland, and he loved it because of his love for the homeland